

بين سوسولوجيا الكتابة وجمالية التلقي "قراءة في ديوان سواد الجرح لبودالي التاج"

Between the Sociology of Writing and the Aesthetics of Reception: A Reading of
."The Blackness of the Wound" by Boudali Al-Tadj

زوغري حمزة * - Hamza Zoughri

جامعة عبد الحميد بن باديس،
مستغانم (الجزائر)

hamza.zoughri@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/06/01

تاريخ الاستلام: 2026/03/22

الملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى بناء مقاربة تركيبية تجمع بين جمالية التلقي وسوسولوجيا الأدب لفهم ديناميات الكتابة والتلقي داخل النص الأدبي. وتنطلق من محاولة الربط بين مفاهيم أفق التوقعات والقارئ الضمني في نظرية التلقي، وبين مفاهيم الحقل الأدبي والرأسمال الرمزي والهايتوس في سوسولوجيا الأدب. وتتمحور الإشكالية حول طبيعة فعل التلقي: هل هو تجربة جمالية تتشكل من خلال التفاعل مع بنية النص، أم ممارسة اجتماعية تتحدد داخل شروط الحقل الثقافي؟ وتعتمد الدراسة منهجًا تحليليًا يستند إلى مراجعة الأدبيات النقدية الحديثة، لتخلص إلى أن الكتابة الأدبية والتلقي فعليين مركّبين يتداخل فيهما الجمالي والاجتماعي في إنتاج المعنى.

الكلمات المفتاحية: سوسولوجيا النص، التلقي، أفق التوقعات، الحقل الأدبي، النسق الأدبي، الذائقة.

Abstract :

This study aims to develop an integrative approach that combines reception aesthetics and the sociology of literature in order to understand the dynamics of writing and reception within literary texts. It attempts to connect key concepts of reception theory—such as the horizon of expectations and the implied reader—with sociological concepts including the literary field, symbolic capital, and habitus. The central research question addresses the nature of reception: whether it should be understood as an aesthetic experience emerging from interaction with the structure of the text, or as a social practice shaped by the dynamics of the literary field. Through an analytical review of relevant critical literature, the study concludes that reception is a complex process in which aesthetic and social dimensions interact in the production of literary meaning.

Keywords: Sociology of the Text, Reception, Horizon of Expectations, Literary Field, Literary System, Taste.

مقدمة :

حظيت الكتابة الأدبية باهتمام واسع في الدراسات النقدية الحديثة، بوصفها ممارسة رمزية تتقاطع فيها الأبعاد الجمالية مع الشروط الثقافية والاجتماعية التي تحكم إنتاج النصوص وتلقيها. ولم يعد النص الأدبي يُنظر إليه باعتباره بنية لغوية مكثفة بذاتها، بل بوصفه خطأً يفتح على شبكة من العلاقات التي تربطه بالقارئ وبالسياق الثقافي الذي يتشكل فيه المعنى. ومن هذا المنطلق، شهدت الدراسات الأدبية تحولات منهجية مهمة سعت إلى تجاوز المقاربات الشكلية الخالصة نحو استحضار دور القارئ من جهة، وأثر البنية الاجتماعية للحقل الثقافي من جهة أخرى.

في هذا السياق برزت جمالية التلقي، كما صاغها Hans Robert Jauss وWolfgang Iser، لتعيد الاعتبار إلى القارئ بوصفه عنصراً فاعلاً في إنتاج الدلالة، من خلال مفاهيم مثل أفق التوقعات والقارئ الضمني. وفي المقابل، قدّمت سوسيولوجيا الأدب، وخاصة في تصور Pierre Bourdieu، إطاراً تحليلياً لفهم الأدب داخل بنية الحقل الثقافي، حيث تتحدد الممارسات الأدبية ضمن شبكة من العلاقات الرمزية المرتبطة بتوزيع الرأسمال الثقافي ومواقع الفاعلين داخل الحقل.

وانطلاقاً من هذا التداخل بين البعد الجمالي والبعد السوسيولوجي، تسعى هذه الدراسة إلى بناء مقارنة تركيبية لفعل الكتابة والتلقي داخل النسق الأدبي، من خلال مساءلة العلاقة بين بنية النص وأفق توقعات القارئ من جهة، وبنية الحقل الثقافي وشروطه الاجتماعية من جهة أخرى. وتنبثق الإشكالية المركزية للدراسة من التساؤل حول طبيعة فعل التلقي: هل يمكن فهمه بوصفه تجربة جمالية داخلية تتشكل عبر التفاعل مع بنية النص، أم باعتباره ممارسة اجتماعية تتحدد وفق شروط الحقل الأدبي وتوزيع الرأسمال الرمزي داخله؟ ومن ثمّ تحاول هذه الدراسة الكشف عن إمكان الجمع بين هذين المنظورين في إطار تحليلي يربط بين القارئ الجمالي والقارئ الاجتماعي، وبين أفق التوقعات والهايتوس، بما يتيح فهماً أعمق لديناميات إنتاج المعنى الأدبي وتلقيه.

1- الكتابة بين المستويين الإبداعي والنقدي:

يمثل فعل الكتابة بين المستويين الإبداعي والنقد السوسيولوجي مجاًلاً تتقاطع فيه التجربة الجمالية مع الوعي الاجتماعي، حيث لا يقتصر النص الأدبي على التعبير الفنيّ أو التخيليّ فحسب، بل يتحول إلى أداة لفهم الواقع الاجتماعي وتحليله. فالكتابة الإبداعية تعيد تشكيل التجربة الإنسانية عبر اللّغة والصور الفنيّة، بينما يسعى النقد السوسيولوجي إلى الكشف عن العلاقات التي تربط النص بالبنية الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها. وفي هذا السياق يمكن القول أن العمل الأدبي لا يتحقق دلاليّاً إلا من خلال فعل القراءة والتأويل الذي يربطه بالسياق الثقافي والاجتماعي¹ الذي يتمخض منه. كما يمكن اعتبار أن التلقي الأدبي يمثل ممارسة ثقافية تتداخل فيها أنظمة معرفية متعددة، لأن فهم النص يرتبط بالبنية الثقافية التي ينتمي إليها القارئ² بل يعد هذا العنصر حاسماً في بلورة طبيعته.

من جهة أخرى نجد أن التحولات التي عرفها النقد الحديث جعلت الخطاب الأدبي قادرًا على مساءلة البنى الثقافية والاجتماعية، إذ لم يعد النص مجرد بناء جمالي بل أصبح مجالًا للكشف عن الأنساق الثقافية المضمرّة³ كما أن القراءة تمثل عملية إنتاج جديدة للمعنى داخل أفق القارئ الثقافي، الأمر الذي يجعل النص الأدبي فضاءً لتفاعل الإبداع مع الوعي الاجتماعي⁴. ومن هذا الطرح، يغدو فعل الكتابة ممارسة مزدوجة تجمع بين الإبداع الفني والوعي السوسولوجي، بحيث يصبح الأدب وسيلة للتعبير الجمالي وفي الوقت نفسه أداة لفهم المجتمع وتحليل تحولاته وكشف خباياه.

لذلك يمكن الإشارة أن فعل الكتابة يتحرك بين مستويين متداخلين هما المستوى الإبداعي والمستوى النقدي، حيث لا تقتصر الكتابة على إنتاج نصوص تخيلية فحسب، بل تتضمن في الوقت ذاته وعيًا نقديًا يتأمل اللغة والواقع والتجربة الإنسانية. فالكاتب أثناء عملية الإبداع يمارس نوعًا من التفكير في الكتابة نفسها وفي علاقتها بالذاكرة والتاريخ⁵، لذلك تصبح الكتابة مجالًا يلتقي فيه الخيال الأدبي مع التأمل الفكري.

2- البعد السوسولوجي والنص الأدبي :

يشكل فعل التلقي إحدى أعقد اللحظات في دورة الإنتاج الأدبي؛ إذ يتقاطع فيه النص والقارئ والمؤسسة الأدبية والسياق الاجتماعي. غير أن الدراسات الأدبية الحديثة انقسمت منذ النصف الثاني من القرن العشرين، إلى اتجاهين رئيسين: اتجاه جمالي تأويلي، مثله جمالية التلقي، واتجاه سوسولوجي بنيوي، تجسّد في نظرية الحقل الأدبي عند "بورديو". وقد أدى هذا الانقسام إلى تباين في تصور ماهية القارئ: هل هو بنية ضمنية يستدعيها النص، أم فاعل اجتماعي مشروط ببنية الحقل الأدبي؟، من هنا تتحدد الإشكالية في السؤال الآتي: كيف يمكن بناء مقارنة تركيبية لفعل التلقي تجمع بين البعد الجمالي التأويلي والبعد السوسولوجي البنيوي دون اختزال أحدهما في الآخر؟

يهتم الاتجاه السوسولوجي في النقد الأدبي بإبراز المضامين الاجتماعية في الإبداع الأدبي، وذلك بالعودة إلى سياقات النص التاريخية، ومحاولة تتبع مصادره التي تكون فيها⁶، وإلى أي مدى تمكن المبدع من تشخيص الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي عاشها المجتمع عامة والمبدع خاصة. فيبحث في مدى تأثير الواقع الاجتماعي في الأعمال الإبداعية، و مواقف المبدع والمواقف التي كانت له اتجاه جملة من القضايا التي عايشها؛ لهذا يرى أن الإنتاج الإبداعي سواء كان نصًا أدبي أو فن من الفنون الأدبية سيكون أفضل حالًا لما يعرض معطيات ذلك العصر بوضوح، فيضع بذلك قيمة متوازنة بين كل من التاريخ والمجتمع والعمل الإبداعي نفسه، بل يزيد في ذلك عندما يرى إلى القيمة الاجتماعية أنها الصانع الأساسي للرؤية الفنية⁷ المكونة للعمل الإبداعي.

3- النص الأدبي في ميزان النقد الاجتماعي :

وضع الدارسون والمفكرون والنقاد ، للعلاقة بين علم الاجتماع والأدب موضعاً خاصاً منذ أبادير التاريخ ، فقد اهتم الفلاسفة اليونان بهذا الشأن وأبرزهم أفلاطون الذي حدد في جمهوريته مكانة الشاعر ، وأبرز دوره ، أما أرسطو الذي أضاف لنظرية أفلاطون الوظيفة التطهيرية ، فكلاهما أكداً على الدور السامي للأدب في المجتمعات آنذاك ؛ فظل محور وظيفته يحوم حول المفهوم التطهيري و الأخلاقي فهذا يؤدي بالإنسان إلى أن يلجأ إلى الشعر لتفسير الحياة لأن العلم و الدين والفلسفة تظل ناقصة بدون الشعر⁸ لذلك يمكن اعتبار أي نص أدبي وثيقة صادقة تجمع الكثير من معالم المجتمعات وخصوصياتها .

في الإطار ذاته وبعد ظهور التيار الحداثي ، بدأ الاهتمام يركز على دراسة العلاقة بين الأدب والمجتمع و يتبلور مع مرور الوقت حتى استوى على الطابع المنهجي النقدي ذو الأبعاد العلمية ليرز ثلة من المنظرين .

- جيامباتيستا فيكو " Giambattista Vico :

يرى Giambattista Vico أن الأدب، ولا سيما الشعر، يمثل البنية الأولى لتشكّل الوعي الاجتماعي، إذ كانت الحكمة الأولى... حكمة شعرية⁹. فالشعر عنده سابقٌ على الفلسفة والقانون، ويؤدي وظيفة تأسيسية في تنظيم الخبرة الجماعية عبر الأسطورة والخيال الرمزي. كما يعكس تطوّر الأشكال الأدبية تحوّل الوعي التاريخي من الإدراك الحسي إلى العقل المفهومي¹⁰ ، بحيث تغدو الأساطير تواريخ حقيقية لعادات الشعوب الأولى¹¹. وعليه، فالأدب في المنظور الفيكوي ليس مرآة للمجتمع فحسب، بل قوة مُنتجة لبنيته الرمزية والتاريخية.

- مادام دوستايل " Germaine de Staël :

في حين ترى Germaine de Staël ، أن الأدب يُدرّس في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية¹² وأن الأدب يتغير بتغير الدين والأخلاق والقوانين¹³ ، وهو ما يرسّخ منظوراً "تاريخياً- اجتماعياً" يجعل النص الأدبي تعبيراً عن روح العصر وتحولاته المؤسسية.

تُعدّ أفكار Germaine de Staël حول العلاقة بين النصوص الأدبية والمؤسسات الاجتماعية منطلقاً مبكراً لما عُرف لاحقاً بالمنهج الاجتماعي في النقد الأدبي، وقد تناولتها دراسات عربية عديدة بالتحليل والتأويل. ففي كتابه مناهج النقد المعاصر يؤكد صلاح فضل أن مدام دو ستايل كانت من أوائل من ربطوا الأدب بالبنية السياسية والدينية، معتبرة أن تغير الأنظمة والقيم يؤدي إلى تحوّل في الأشكال والأساليب الأدبية¹⁴ ما يجعلها أكثر تماشياً بالتوازي مع هذه البنى .

- تين Hippolyte Taine :

ورغم هذه النقلة الهامة ، في تفسير العلاقة بين النسق والملابسات الاجتماعية المحيطة به ، ييلور Hippolyte Taine تصويره للنقد الأدبي في ضوء نظريته الشهيرة العرق، والبيئة، والعصر¹⁵، حيث يرى أن العمل الأدبي حصيلة

حتمية لمجموعة من الشروط تحيط بالمبدع وتحدد رؤيته للعالم ، وتخضع الأدب لقوانين شبيهة بقوانين العلوم الطبيعية¹⁶ إذ يمكن ربط العمل الإبداعي بالعوامل الاجتماعية والتاريخية¹⁷ ، كما تشير بعض الترجمات العربية لكتاب تين "فلسفة الفن" إلى قوله "إن الأثر الفني ولید البيئة التي نشأ فيها"¹⁸ ، مما يعكس نزوعه الحتمي في تفسير الظاهرة الأدبية. وعليه، يؤسس تين منظورا "اجتماعيا- تاريخيا" يجعل النص الأدبي وثيقة كاشفة عن البنية الحضارية التي أنتجته، لا تعبيراً فردياً معزولاً.

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات الساعية إلى ربط الأدب بالظروف الاجتماعية ، إلا أن النقد الاجتماعي لم يتأسس وفق منهج متكامل ، وإن اعتمد على مرجعية نظرية الانعكاس التي أصبح يفضلها الكاتب حتى يتاح أمامه مجال لتصوير الحياة الاجتماعية من جهة ، وعاكسا لقيمتها من جهة أخرى ، فضلا عن هذا ، فقد عمّق طه حسين الدعوة إلى ضرورة تحميل النصوص الأدبية مهمة تصوير حياة الناس... فلا يكون الأدب أدبا حتى ينقل تفاصيل حياة الناس ، وليس في الأرض أدب إلا وهو يصور حياة أصحابه ، وهذا ما دعى إليه النقد العربي الحديث ، عكس ما كان قبل ذلك حيث كان النقد يهتم بالجوانب اللغوية والبلاغية في الأعمال الأدبية¹⁹ ويهمل الجوانب الاجتماعية بكل ملامحها .

ومن هنا كان الأدب مصدرا من مصادر التاريخ الإنساني... والأمر ما قدماؤنا أن الشعر الجاهلي ديوان العرب لأنهم لم يكادوا يعرفون شيئا من أمر هؤلاء الجاهليين إلا من طريق هذا الشعر ... فكل أدب في أي أمة من الأمم إنما هو يصور نوعا من أنواع حياتها ولونها من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس صور الحياة في نفوسها. وأكبر الظن أن الذين يقولون: يجب أن يكون الأدب للحياة، إنما يرون شيئا يحسونه في أعماقهم، ولكن عقولهم قد لا تحققه²⁰ فيبقى حبيسا ينتظر نسقا يحمل كل هذه التفاصيل وينقلها بصدق للقارئ .



4- النص الأدبي وعملية التلقي:

مما لاشك فيه ، أن النص الأدبي عالم ضخم متشعب متشابك ومعقد ، يتمخض عن كم هائل من الظروف الخارجية والداخلية ، فتارة نجد أحد الدارسين يُرجع ولادته لتراكم هائل من الملابس التاريخية والاجتماعية والنفسية ، وتارة أخرى نقف أمام جمع من الدارسين يعلنون القطيعة بين النص ومبدعه بمجرد الانتهاء من تدبيجه ، فهو يرافقه في نظرهم فقط في مرحلة المخاض أو لحظة الصفر كما يطلق عليها " رولان بارت " ، ثم لا ذاك من هذا ولا هذا من ذاك . إنّ الذي أبدع النص الأدبي ، بعد وقت قصير من عملية التفرغ الابداعية يصبح هو أيضا كالأخرين أجنبيا عن نصه بحيث يعجز عن استظهاره حرفيا ²¹ بل هو يعجز عن فهمه بعد مدة زمنية ، ليعلن فصلا جديدا من محاولة الفهم ؛ بطله القارئ في حد ذاته .

ظلت عملية البحث في مكانة القارئ داخل عملية القراءة ، ودور النص كركيزة لغوية ، وتفاوت التفاعل بين النص والمتلقي ، وكيف ينتج المتلقي الدلالة في سياق هذا التفاعل ، وما حدود التأويل في عملية التفاعل بين النص والقارئ ، فقد حاولت نظرية التلقي عند مدرسة كونستانس الألمانية الإجابة عن جل الإشكالات خاصة عند كل من "هانز روبرت ياكوبس وفولفغانغ ايزر " اللذان انطلقا من فكرة " أن النص الأدبي يبقى مجردا من معناه إلى حين قراءته " ²² ، التي تعتبر في رأيه كفيلا بإزاحة الغموض واللبس عنه .

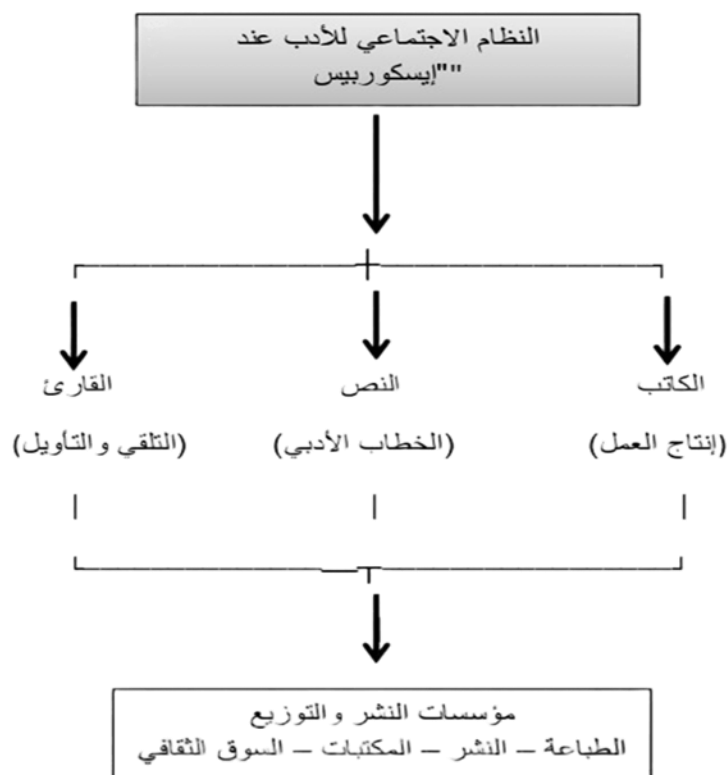
في السياق ذاته، ظل النقد الحديث يلح على أن النص الأدبي لا يكتمل معناه إلا عبر عملية التلقي التي ينجزها القارئ، إذ لم يعد النص يُنظر إليه بوصفه بنية مغلقة ذات دلالة ثابتة، بل فضاء مفتوحا لتعدد القراءات. وفي هذا السياق يرى صلاح فضل أن القارئ يمثل عنصرا أساسيا في تحقيق النص، لأن دلالاته لا تتحدد إلا من خلال فعل القراءة الذي يربط بين البنية النصية وخبرة المتلقي الثقافية ²³. كما أن النقد الحديث نقل مركز الاهتمام من المؤلف إلى القارئ، فأصبح النص مفتوحا على تأويلات متعددة ²⁴، ففي هذا الصدد ، يشير حميد لحمداني إلى أن القراءة ليست استهلاكا سلبيا للنص بل إعادة إنتاج للمعنى داخل أفق القارئ الثقافي ²⁵ الذي يكون حاضرا وضروريا في هذه العملية .

ومن جهة أخرى، تتجه المقاربات الحديثة إلى ربط التلقي بالسياق الثقافي والاجتماعي للقراءة. ففي هذا الإطار يرى محمد مفتاح أن التلقي ممارسة ثقافية تتداخل فيها أنظمة معرفية متعددة ²⁶، بينما أن النص لا يكتسب معناه إلا داخل عملية القراءة التي يقوم بها المتلقي. ويؤكد حسين الواد أن العمل الأدبي يعيش داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تحدد إنتاجه وتلقيه ²⁷، وهو ما ينسجم مع ما طرحه Hans Robert Jauss من أن معنى العمل الأدبي يتحدد تاريخيا وفق أفق توقعات القراء ²⁸، فالجمهور القارئ له سطوته التي تخول له تحديد المعاني والقيم السوسيولوجية داخل ذلك النص الأدبي في حد ذاته .

5- سوسيولوجيا القراءة عند Escarpit, Robert روبرت إيسكاربيس :

تُعد سوسيولوجيا القراءة والتلقي من المحاور الأساسية في سوسيولوجيا الأدب، وقد اهتم بها عالم الاجتماع الفرنسي Robert Escarpit الذي نظر إلى الأدب بوصفه ظاهرة تواصلية اجتماعية لا تقتصر على النص وحده، بل تشمل كذلك القارئ والمؤسسات الثقافية التي تتيح تداول العمل الأدبي. فالنص الأدبي في هذا التصور لا يكتسب قيمته إلا داخل عملية القراءة التي تربط بين الإنتاج الأدبي والمتلقي في إطار اجتماعي وثقافي محدد. ، حيث يرى الدارسون أن العمل الأدبي لا يتحقق دلاليًا إلا من خلال فعل القراءة الذي ينجزه المتلقي داخل سياق ثقافي معين، إذ " لا تكتمل دلالة العمل الأدبي إلا بفعل القراءة "29. كما أن التلقي يمثل ممارسة ثقافية تتداخل فيها أنظمة معرفية واجتماعية متعددة، لأن " فهو ليس عملية ذهنية فقط، بل ممارسة ثقافية تتداخل فيها أنظمة متعددة من المعرفة "30 تزيد من توسيع عملية الفهم الصحيح لمقاصد النص .

من جانب آخر يشير عبد الله الغدامي إلى أن التحولات التي عرفها النقد الحديث جعلت النص الأدبي مفتوحًا على تعدد القراءات، إذ " لم يعد النص مغلقًا على مؤلفه، بل أصبح مفتوحًا على تأويلات متعددة ينجزها القارئ "31. ومن ثم فإن سوسيولوجيا القراءة عند إيسكاربيس تسعى إلى دراسة العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ والمجتمع، باعتبارها منظومة متكاملة تُسهم في إنتاج المعنى الأدبي وتداوله داخل الحقل الثقافي.



6- النص الأدبي بين القارئ الضمني والقارئ الاجتماعي:

يعد مفهوم القارئ الضمني من المفاهيم المركزية في نظرية التلقي، إذ يشير إلى الصورة التي يفترضها النص للقارئ القادر على التفاعل مع بنيته الدلالية واستكمال معانيه. وقد بلور هذا المفهوم الناقد الألماني Wolfgang Iser الذي يرى أن النص الأدبي لا يكتمل إلا عبر فعل القراءة، لأن بنيته تتضمن فراغات دلالية تستدعي القارئ لمملها وتأويلها، حيث يؤكد أن " النص الأدبي يمتلك قطبين: قطباً فنياً يتمثل في النص ذاته، وقطباً جمالياً يتحقق في وعي القارئ³² فكلاهما يسهمان بشكل واضح في تكون العملية الابداعية .

وركحا على ما سبق ، حاول النقاد العرب تركيز الاهتمام بهذا البعد التفاعلي للنص؛ إذ يرى عبد الملك مرتاض أن العمل السردى لا يحقق دلالاته إلا عبر القارئ الذي يعيد بناء معناه أثناء القراءة، مشيراً إلى أن النص السردى يظل بنية مفتوحة لا تكتمل إلا بتدخل القارئ الذي يعيد تشكيل دلالاته³³. كما لا يمكن اعتبار القراءة عملية استهلاك للنص فقط ، بل ممارسة تأويلية تكشف الأنساق الثقافية الكامنة في الخطاب الأدبي³⁴ الواحد .

أما القارئ الاجتماعي فيتحدد داخل الإطار الثقافى والتاريخى الذى تشكل فيه عملية القراءة، حيث يصبح القارئ فاعلاً اجتماعياً يتأثر بمنظومة القيم والمعارف التى ينتمى إليها. وقد صاغ الناقد الألماني Hans Robert Jauss مفهوم أفق التوقعات الذى يوضح أن استقبال النص الأدبى يتحدد وفق خبرة القراء السابقة والمعايير الجمالية السائدة فى زمن معين، لأن العمل الأدبى يدخل فى حوار مع توقعات الجمهور القرائى³⁵ الذى يمتلك سلطة خفية يمارسها من حين لآخر على النتاج الابداعى.

ويتقاطع هذا التصور مع مفهوم الهايتوس لدى عالم الاجتماع Pierre Bourdieu الذى يبين أن الذوق الأدبى وممارسات القراءة تشكل داخل البنية الاجتماعية والثقافية للفرد. وفى السياق نفسه نجد أن الخطاب الأدبى لا يفهم بمعزل عن القارئ وسياقه الثقافى، فالأسلوب لا يتحقق فى النص وحده، بل فى العلاقة التى تنشأ بين النص وقارئه داخل سياق ثقافى محدد³⁶، وهو ما يؤكد أن القراءة فعل ثقافى واجتماعى تتقاطع فيه بنية النص مع أفق القارئ وخبرته المعرفية.

وعليه فإن عملية تلقي النصوص الأدبية لا تقوم على النص وحده، بل تشكل من خلال التفاعل بين بنية النص والقارئ وسياقه الثقافى والاجتماعى. فمفهوم القارئ الضمنى يبرز الدور الذى يمنحه النص للقارئ فى استكمال دلالاته وملء فراغاته التأويلية، بينما يوضح مفهوم القارئ الاجتماعى أن القراءة تتأثر بأفق التوقعات والخلفية الثقافية التى ينتمى إليها القارئ. ومن ثم فإن المعنى الأدبى لا يتحدد داخل النص فقط، بل يتولد فى لحظة التفاعل بين النص والقارئ ضمن إطار اجتماعى وثقافى معين، الأمر الذى يجعل القراءة فعلاً تأويلياً يجمع بين البعد الجمالى للنص والبعد السوسيولوجى للتلقى.

قراءة سوسيوجمالية في ديوان "سواد الجرح" :

تقوم عملية القراءة التحليلية هذه ، على الجمع بين جمالية التلقي وسويسولوجية النص الشعري عند الشاعر بودالي تاج ، وذلك انطلاقاً من تصور يرى أن معنى النص الأدبي لا يتشكل داخل بنيته اللغوية فحسب ، بل يتولد أيضاً من تفاعل القارئ مع هذه البنية داخل سياق اجتماعي وثقافي محدد . فقد أكد "هانس" أن تاريخ الأدب لا يمكن فهمه إلا عبر تاريخ تلقيه ، حيث يقول أن النص الأدبي لا يكتسب معناه النهائي إلا عبر تفاعل القراء معه عبر التاريخ³⁷ في حين تنطلق سويسولوجيا الأدب عند "بيار بورديو" من اعتبار الأدب جزءاً من حقل اجتماعي تحكمه علاقات القوة الرمزية ، حيث يرى أن الحقل الأدبي يمثل "فضاءً من المواقع ومن اتخاذ الموقف" (un espace de positions et de prises de position)، أي شبكة من العلاقات التي تتحدد فيها ممارسات الفاعلين الثقافيين³⁸ وفق موقعهم داخل الحقل.

انطلاقاً من هذا الإطار النظري المزدوج، يمكن مقارنة النصوص الشعرية التي بين أيدينا بوصفها بنية دلالية مفتوحة على تلقيات متعددة، يتشكل معناها من خلال التفاعل بين النص والقارئ والسياق الاجتماعي والثقافي.

1- النص الأول : قصيدة " خطوات "

أرهقتني خطوات هذا المساء باحثاً

لاهثاً ، أبغي شداً وغناء

أركض كما زخات المطر

كما شذى الروح بعثرها الصبر

لست منك و لست مني

إسألني غبار أقدامي وكريات دمي الأحمر

وحين وصلت ، قالت : عد في المساء علمتني الحياة

أن أهواها سحب وأفراحها مجرد غمام

كم أهقتني خطواتي هذا المساء

أ- البنية الشعرية ودلالات الخطاب:

يبدأ النص بالبيت: أرهقتني خطوات هذا المساء باحثاً

لاهثاً ، أبغي شداً وغناء

يفتح الشاعر النص بصورة حركية قائمة على التعب والبحث. فالفعل "أرهقتني" يؤسس منذ البداية لحالة وجودية من الإجهاد، بينما يضيف الإعلان "باحثًا" و"لاهثًا" بعدًا ديناميكيًا يعكس حالة السعي الدائم نحو نيل المبتغى . كما أن اقتران التعب بالبحث عن "الشدو والغناء" ليخلق مفارقة دلالية فالتكلم يسعى إلى الجمال والفرح لكنه يجد نفسه في حالة إنهاك، وهذه المفارقة تشكّل محور التجربة الشعرية في النص.

ب- الصور الشعرية وبنية الاستعارة :

يعتمد النص على سلسلة من الصور الحركية المتتابعة، كما ورد في البيتين المواليين:

أركض كما زخات المطر

كما شذى الروح بعثرها الصبر

الصورة الأولى (الركض كزخات المطر) توحى بالحركة السريعة والمتقطعة ، بينما الصورة الثانية تربط بين " الشذى " و"الصبر" ، وهي علاقة شعرية تقوم على المفارقة : إذ أن الصبر عادة مرتبط بالثبات ، لكن الشاعر يجعله قوة مبددة للخطر الروحي ، إذ تستشف من هذه الصورة ذلك التوتر الداخلي بين الحركة والانتظار .

ج - تشظي الذات الشعرية :

ستُ منك ولستُ مني

أسألي غبار أقدامي وكريات دمي الأحمر

يظهر هنا انقسام واضح في هوية الذات الشعرية. فالقول "لست منك ولست مني" يعكس حالة اغتراب مزدوجة : اغتراب عن الآخر / واغتراب عن الذات.

ويتعمق هذا الإحساس عبر الاستعانة بعنصرين ماديين:

غبار الأقدام / كريات الدم

وهما يشيران إلى الأثر الجسدي للتعب والركض، مما يحوّل التجربة من حالة وجدانية إلى تجربة وجودية متجسدة في الجسد.

د- المفارقة الدلالية:

تبلغ الذروة التجربة الشعرية في قول الشاعر: وحين وصلت قالت: عد في المساء

هنا تتكشف المفارقة المركزية في النص ، فكل هذا الركض ينتهي بلا تلك النتيجة المرجوة ، وتشير هذه اللحظة إلى عبثية السعي الإنساني أو إلى تأجيل اللقاء والاكتمال .

هـ - أفق التوقعات وبنية القارئ:

وفق تصور Hans Robert Jauss، يتشكل معنى النص داخل أفق توقعات القارئ. ويستدعي هذا النص قارئاً قادراً على إدراك المفارقات الرمزية بين الحركة والانتظار، وبين الأمل والتعب.

كما أن النص يترك فراغات دلالية عديدة، مثل:

✓ هوية المخاطب

✓ سبب الرحلة

✓ طبيعة اللقاء المؤجل

وهذه الفراغات تدفع القارئ إلى المشاركة في إنتاج المعنى، وهو ما يسميه gang Iser Wolf “نشاط القارئ في ملء فجوات النص” التي ما إنفكت أصبحت تساهم في بناء معنى النص الشعري .

و - القراءة السوسولوجية للنص :

إذا انتقلنا إلى التحليل السوسولوجي، فإن تجربة الرقص والبحث في النص يمكن قراءتها بوصفها استعارة عن الإنسان المعاصر داخل الحقل الاجتماعي، فالرقص المستمر دون وصول، قد يعكس حالة الاغتراب التي يعيشها الفرد في المجتمع الحديث؛ ومن منظور سوسولوجيا الأدب، يمكن القول إن النص يعكس تجربة ذات تبحث عن الاعتراف أو الاكتمال داخل فضاء اجتماعي لا يمنحها الاستقرار.

أنماط التلقي المحتملة :

يمكن أن يتلقى النص بثلاثة مستويات مختلفة:

- التلقي الجمالي:

يركز على الصور الشعرية والإيقاع الداخلي للنص.

- التلقي التأويلي :

يرى في النص تعبيراً عن تجربة وجودية للبحث والاعتراب.

- التلقي السوسولوجي :

يقرأ النص بوصفه استعارة عن الإنسان المعاصر داخل مجتمع يقوم على السعي المستمر.

يكشف هذا النص الشعري عن تجربة إنسانية قائمة على التوتر بين السعي والخيبة، حيث تتحول الحركة إلى استعارة عن البحث الوجودي الذي قد لا ينتهي إلى اكتمال. ومن خلال توظيف الصور الحركية والمفارقات الدلالية، يخلق الشاعر بنية شعرية مفتوحة تستدعي مشاركة القارئ في إنتاج المعنى. فمن منظور سوسولوجيا التلقي، فإن دلالة

النص لا تتحدد داخل بنيته اللغوية فقط، بل تتشكل أيضاً عبر تفاعل القارئ مع التجربة الشعرية ضمن سياقه الثقافي والاجتماعي. وبهذا المعنى، فإن تلقي النص نفسه يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية للقراء.

2- النص الثاني قصيدة " حلم "

أبصرت حلما أزرقا
أبصرت طريقا أخضرا
مشيت فيه ، أنشد بقتارتي
أرتل ألحاني كقرآن أمتي
وفجأة تقطع وتري ولم يعد وتري
وتحولت دموعي إلى خشوعي
أجهشت صارخا أبتغي حلما آخر غير حلمي
أرئو إلى باب مغلق في السماء
كلمات : لا تحلم ... لا تحلم
فقد تغادر إذا الصحراء ويغدو الحلم ذكرى وعزاء.

أ- بنية الحلم في الخطاب :

تتأسس البنية الدلالية للنص منذ مطلعته على مركزية مفهوم الحلم بوصفه نواة التجربة الشعرية ومحركها الرمزي. فقول الشاعر: "أبصرت حلماً أزرقاً / أبصرت طريقاً أخضراً" لا يكتفي بتقديم صورة تخيلية عابرة، بل يؤسس فضاءً رمزياً تتداخل فيه الرؤية البصرية مع البعد التأويلي. فالفعل "أبصرت" يحمل دلالة الإدراك البصري، غير أن موضوع الإبصار هنا ليس شيئاً مادياً بل "حلم"، وهو ما يحوّل الحلم إلى كيان شبه ملموس يمكن رؤيته والانخراط فيه. ويكشف هذا التشكيل اللغوي عن آلية شعرية تقوم على تجسيد المجرد، حيث تتحول الفكرة أو الحالة النفسية إلى صورة حسية قابلة للتخيّل.

كما أن اختيار اللونين الأزرق والأخضر يضيفي على الحلم بنية رمزية مزدوجة؛ إذ يرتبط الأزرق في المخيال الشعري بامتداد الأفق والسمو الروحي، بينما يحيل الأخضر إلى الحياة والنماء والخصوبة. وبهذا المعنى، يفتح النص منذ بدايته أفقاً دلاليّاً قائماً على الأمل والانبعاث، وهو ما يسهم في تشكيل ما يسميه Hans Robert Jauss أفق التوقعات لدى القارئ .

ب- صورة الفنان الحالم :

يقدم النص في قوله: " مشيت فيه، أنشد بقيناري / أرتل ألحاني كقرآن أمّي " تمثيلاً رمزياً للشاعر بوصفه فناناً حالمًا يجمع بين الإبداع الفني والبعد الروحي. ففعل "الإنشاد" المصحوب بألة القيتارة يحيل إلى الفعل الموسيقي بوصفه تعبيرًا جماليًا عن التجربة الذاتية، بينما يضفي التشبيه بـ "قرآن أمّي" بعدًا قدسيًا على هذا الفعل، بحيث تتحول الموسيقى إلى ممارسة ذات طابع روحي يتجاوز حدود الفن الخالص. وبهذا المعنى، تتشكل صورة الشاعر داخل النص بوصفه وسيطًا رمزياً بين التجربة الفردية والجماعة، إذ لا ينشد لنفسه فقط بل يقدم ألحانه وكأنها خطاب موجه إلى "الأمة". ومن منظور سوسيولوجيا الأدب، يمكن قراءة هذه الصورة باعتبارها تمثيلًا لدور الفنان داخل الحقل الثقافي، حيث يسعى المبدع إلى إنتاج معنى رمزي يمنحه موقعًا داخل شبكة العلاقات الثقافية التي تحكم المجال الأدبي، وهو ما يتقاطع مع تصور **Pierre Bourdieu** للحقل بوصفه فضاءً تتحدد فيه المواقع الإبداعية من خلال ما ينتجه الفاعلون الثقافيون من مواقف جمالية ورمزية. وفي ضوء هذا التصور، لا يظهر الفنان الحالم في النص مجرد ذات شاعرية منغلقة، بل كفاعل رمزي يحاول عبر الفن تحويل الحلم إلى خطاب جمالي ذي بعد جماعي.

ج- صورة الانكسار الرمزي:

يتجسد التحول الدلالي في النص عند المقطع: "وفجأة تقطع وتري / ولم يعد وتري"، حيث يمثل انقطاع الوتر لحظة انكسار رمزي في مسار التجربة الشعرية. فالوتر في السياق الشعري لا يحيل فقط إلى عنصر موسيقي مرتبط بألة العزف، بل يتخذ دلالة رمزية أوسع بوصفه علامة على الانسجام الداخلي واستمرار الإبداع. وعندما ينقطع هذا الوتر، يتوقف فعل الإنشاد الذي كان يجسد حالة الحلم والتدفق الجمالي، فتتحول التجربة من حالة انسجام فني إلى لحظة صدمة وانقطاع.

ويكشف هذا التحول عن انتقال الخطاب الشعري من فضاء الأمل إلى فضاء الانكسار، الأمر الذي يخلق مفارقة جمالية تكسر أفق توقعات القارئ، وهو ما تشير إليه جماليات التلقي حين ترى أن التأثير الجمالي للعمل الأدبي يتحقق عندما يحدث النص مسافة بين ما ينتظره القارئ وبين ما يقدمه فعليًا. وبذلك يتحول انقطاع الوتر في النص إلى علامة رمزية لانهيار الحلم أو تعثر المسار الإبداعي، ليغدو لحظة مفصلية تعيد توجيه الدلالة الشعرية نحو تجربة الأمل والتأمل.

د- خطاب المنع وتحطّم الأمل:

يتجلى في المقطع الآتي: أجهشت صارخًا أبغني حلمًا آخر غير حلمي

أرّنو إلى بابٍ مغلقٍ في السماء

كلمات: لا تحلم... لا تحلم

ذلك الانتقال انتقال من التجربة الشعرية إلى لحظة مواجهة مع سلطة رمزية تُعيق تحقق الحلم. فصورة الباب المغلق في السماء تمثل استعارة للانسداد الوجودي أو الاجتماعي الذي يقف في وجه تطلعات الذات، بينما يعكس تكرار عبارة "لا تحلم" حضور خطاب مانع يحاول كبح الطموح الفردي. ركحا على ما سبق، يمكن قراءة المقطع بوصفه تجسيداً للتوتر بين رغبة الذات في تحقيق حلمها وبين القيود الرمزية التي تفرضها البنى الاجتماعية، وهو ما ينسجم مع تصور **Pierre Bourdieu** للحقل الثقافي بوصفه فضاءً تتحكم فيه علاقات القوة والاعتراف الرمزي، حيث لا تتحقق الطموحات الإبداعية دائماً وفق إرادة الفرد وحدها.

هـ : البعد السوسيولوجي للنص .

يمكن قراءة التجربة الشعرية في هذا النص من منظور سوسيولوجي بوصفها تعبيراً رمزياً عن علاقة الفرد بواقعه الاجتماعي. فالحلم الذي يبدأ بصورة مشرقة سرعان ما يصطدم بعوائق تحول دون تحقيقه، وهو ما يعكس توتراً بين تطلعات الذات وإكراهات الواقع. وتظهر هذه العلاقة بوضوح في صور الانكسار والباب المغلق وخطاب المنع، حيث تتحول هذه العناصر إلى رموز للحدود التي يفرضها السياق الاجتماعي على إمكانات الفعل الفردي. ومن هذا المنظور، لا يمثل النص مجرد تجربة ذاتية معزولة، بل يعكس صراعاً أوسع بين الطموح الشخصي والبنى الرمزية التي تنظم المجال الثقافي والاجتماعي، وهو ما ينسجم مع تصور **Pierre Bourdieu** للحقل الثقافي بوصفه فضاءً تتحكم فيه علاقات القوة والاعتراف الرمزي بين الفاعلين الثقافيين.

د- أنماط التلقي المحتملة:

يمكن تلقي النص وفق ثلاث مستويات:

التلقي الجمالي

يركز على الصور الشعرية والرمزية اللونية.

التلقي الوجودي

يرى في النص تعبيراً عن تجربة إنسانية تتأرجح بين الحلم والانكسار.

التلقي السوسيولوجي

يفسر النص بوصفه خطاباً عن العلاقة المتوترة بين الفرد الطامح والبنى الاجتماعية المقيدة.

ومن هذا التحليل نستنتج أن النص يكشف عن تجربة شعرية قائمة على التوتر بين الحلم والانكسار، حيث يتحول المسار من فضاء لوحي مشرق إلى مشهد رمزي من الانسداد والخبية. ومن خلال الصور الموسيقية والروحية، يخلق الشاعر خطاباً شعرياً يعكس صراع الذات مع حدود الواقع. وفضلاً عن هذا تبرز أهمية المقاربة السوسيولوجية-التلقية

في إظهار أن معنى النص لا يتحدد داخل بنيته اللغوية فقط، بل يتشكل أيضًا عبر تفاعل القارئ مع رموزه ضمن سياق ثقافي واجتماعي.

خاتمة :

وجملته الأمر في كلّ هذا أنّ فهم الكتابة الأدبية لا يستقيم إذا ما اقتصر على مقارنة النص - شعرا كان أم نثرا- بوصفه بنية جمالية منغلقة على ذاتها، كما لا يكتمل إذا أُحيل إلى مجرد انعكاس مباشر للبنية الاجتماعية؛ بل إنّ إدراك ديناميات الكتابة والتلقي يقتضي الجمع بين البعدين الجمالي والسوسيولوجي في إطار مقارنة تركيبية. ومن هذا المنطلق سعت هذه الدراسة إلى إعادة وصل ما انقطع بين جمالية التلقي، كما بلورها كلٌّ من Hans Robert Jauss وWolfgang Iser، وبين سوسيولوجيا الحقل الأدبي عند Pierre Bourdieu، وذلك للكشف عن الطبيعة المركبة لفعل التلقي بوصفه تجربة جمالية تتشكل عبر تفاعل القارئ مع بنية النص وأفق توقعاته، وفي الوقت نفسه ممارسة اجتماعية تتحدد ضمن شروط الحقل الثقافي وتوزيع الرأسمال الرمزي داخله. وقد أظهر التحليل أن استقبال النصوص الأدبية لا ينفصل عن السياقات الثقافية والاجتماعية التي تتشكل فيها الذائقة القرائية، الأمر الذي يبرز ضرورة تجاوز الفصل التقليدي بين النقد الجمالي والتحليل السوسيولوجي. ومن ثمّ، تقترح هذه الدراسة تصورًا تحليليًا يربط بين أفق التوقعات والهايتوس، وبين بنية النص وبنية الحقل، بما يتيح فهمًا أكثر شمولًا لفعل التلقي بوصفه عملية ديناميّة يتقاطع فيها الجمالي والاجتماعي في إنتاج المعنى الأدبي.

التهميش :

- ¹ ينظر : صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص: 233.
- ² محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990، ص 118.
- ³ عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشرّحية، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1985، ص: 72.
- ⁴ حميد حمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دط، 1990، ص: 45.
- ⁵ ينظر : إلياس خوري، الذاكرة المفقودة: دراسات في الكتابة والذاكرة، بيروت: دار الآداب، 1982، ص 11.
- ⁶ ينظر : محمد بلوحي، الكتاب الأدبي في الجزائر شروط إنتاجه وسياق تلقيه، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2015، ص: 5.
- ⁷ ينظر : المرجع نفسه، ص: 5.

- ⁸ شايف عكاشة ، اتجاهات النقد المعاصر في مصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1985 ، ص: 12.
- ⁹ Vico, Giambattista. La Scienza Nuova. Edizione del 1744. A cura di Fausto Nicolini. Bari: Laterza, 1911 p.34.
- ¹⁰ Vico, Giambattista. The New Science of Giambattista Vico. Translated by Thomas Goddard Bergin, 1968.p218.
- ¹¹ Giambattista Vico. العلم الجديد. ترجمة: محمد عبد الله عنان د.ط ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ص: 401.
- ¹² صلاح فضل ، مناهج النقد المعاصر ، منشورات الربيع ، مصر ، 2021 ، ص : 13 .
- ¹³ المرجع نفسه ، ص: 14.
- ¹⁴ المرجع نفسه ، ص: نفسها
- ¹⁵ تين، هيبوليت.. فلسفة الفن تر: محمد مندور ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1985 ، ص: 35.
- ¹⁶ صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002، ص: 68.
- ¹⁷ المرجع نفسه ، ص: 78.
- ¹⁸ تين، هيبوليت.. فلسفة الفن ، ص: 35.
- ¹⁹ ينظر : محمد بلوحي ،الكتاب الأدبي في الجزائر شروط إنتاجه وسياق تلقيه ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، الجزائر ، 2015 ، ص: 14.
- ²⁰ طه حسين ، خصام ونقد ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط 10 ، 1980 ، ص: 44،45،46.
- ²¹ عبد الملك مرتاض ، النص الأدبي من أين وإلى أين ؟ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 ، ط1 ، ص: 41،42.
- ²² ينظر : محمد بلوحي ،الكتاب الأدبي في الجزائر شروط إنتاجه وسياق تلقيه، ص: 17 .
- ²³ صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، ط3، القاهرة، 1998، ص: 233.
- ²⁴ عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، ص: 72.
- ²⁵ حميد لحمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1990، ص 45.
- ²⁶ محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية ، ص: 118.
- ²⁷ حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، دار سراس، ط2، تونس، 1993، ص 156.
- ²⁸ Hans Robert Jauss, Toward an Aesthetic of Reception, 1982, p.21
- ²⁹ صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي ، ص: 233.
- ³⁰ محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية، المركز الثقافي العربي، ص: 118.
- ³¹ عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير: من النبوية إلى التشرقية ، ص: 72.

³² Wolfgang Iser, The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response, Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978, p. 21.

³³ عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998، ص: 142.

³⁴ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000، ص: 85.

³⁵ Hans Robert Jauss, Toward an Aesthetic of Reception, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982, p. 23.

³⁶ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، تونس: الدار العربية للكتاب، 1977، ص: 97.

³⁷ ياوس، هانس روبرت. جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، تر: رشيد بنحدو، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 1998، ص: 5.

³⁸ بيير بورديو، قواعد الفن: نشأة وبنية الحقل الأدبي، ترجمة إبراهيم فتحي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص: 25.